اجتلاء العيد

جاء يوم العيد ؛ يومُ الخروج من الزَّمن إلى زمنٍ وحدَه لا يستمرُّ أكثر من يومٍ .

زمنٌ قصيرٌ ظريفٌ ضاحكٌ ، تفرضُه الأديانُ على النَّاس ؛ ليكونَ لهم بين الحين والحين يومٌ طبيعيٌّ في هذه الحياة ؛ التي انتقلت عن طبيعتها .

يومُ السَّلام ، والبِشْرِ ، والضَّحك ، والوفاء ، والإخاءِ ، وقول الإنسان للإنسان : « وأنتم بخير » .

يومُ الثِّيابِ الجديدة على الكلِّ ؛ إشعاراً لهم بأنَّ الوجهَ الإنسانيَّ جديدٌ في هذا اليوم .

يوم الزِّينة ؛ التي لا يراد منها إلاَّ إظهارُ أثرها على النَّفس ؛ ليكون النَّاس جميعاً في يوم حبٍّ .

* * *

يومُ العيد ؛ يوم تقديم الحلوى إلى كلِّ فمٍ ؛ لتحلوَ الكلماتُ فيه . . .

يومٌ تَعُمُّ فيه النَّاسَ ألفاظُ الدُّعاءِ والتَّهنئةِ مرتفعةً بقوَّةٍ إلـهيَّةٍ فوق منازعات الحياة .

ذلك اليومُ ؛ الَّذي ينظر فيه الإنسانُ إلى نفسه نظرةً تلمح السَّعادة ، وإلى أهله نظرةً تُبصر الإعزاز ، وإلى داره نظرةً تدرك الجمال ، وإلى النَّاس نظرةً ترى الصَّداقة .

ومن كلِّ هذه النَّظرات تستوِي له النَّظرة الجميلة إلى الحياة ، والعالم ، فتبتهج نفسُه بالعالم ، والحياة .

وما أسماها نظرةً ! تكشف للإنسان أنَّ الكلَّ جمالُه في الكلِّ ! .

* * *

وخرجتُ أجتلي العيدَ في مظهرِه الحقيقيِّ على هؤلاء الأطفالِ السُّعداء .

على هذه الوجوه النَّضرة[١] ؛ الَّتي كبِرتْ فيها ابتساماتُ الرَّضاع ، فصارت ضحكاتٍ .

وهـذه العيون الحالمةِ ؛ الَّتي إذا بكت ؛ بكت بدموعٍ لا ثِقْلَ لها .

وهذه الأفواهِ الصَّغيرةِ ؛ الَّتي تنطق بأصواتٍ لا تزال فيها نبراتُ الحنان من تقليد لغة الأمِّ .

وهذه الأجسامِ الغضَّةِ[٢] القريبة العهدِ بالضَّمَّات واللَّثمات ، فلا يزال حولها جوُّ القلب .

* * *

على هؤلاء الأطفال السُّعداء ، الَّذين لا يعرفون قياساً للزَّمن إلا بالسُّرور ، وكلٌّ منهم ملكٌ في مملكةٍ ، وظَرفهم هو أمرهم الملوكيُّ .

هؤلاء المجتمعين في ثيابهم الجديدة المصبَّغة اجتماع قوسِ قُزَح[٣] في ألوانه ، ثيابٌ عَمِلتْ فيها المصانع ، والقلوب ، فلا يتمُّ جمالها إلا بأن يراها الأبُ ، والأمُّ على أطفالهما .

ثيابٌ جديدةٌ يلبسونها ، فيكونون هم أنفسهم ثوباً جديداً على الدُّنيا .

* * *

هؤلاء السَّحَرة الصِّغارُ الَّذين يُخرِجون لأنفسهم معنى الكنز الثمين من قرشين . . .

ويسْحَرون العيدَ ، فإذا هو يومٌ صغيرٌ مثلهم ، جاء يدعوهم إلى اللَّعِب .

وينتبهون في هذا اليوم مع الفجر ، فيبقى الفجر على قلوبهم إلى غروب الشَّمس .

ويُلقون أنفسهم على العالم المنظور ، فيبنون كلَّ شيءٍ على أحد المعنيين

(١) « النضرة » : نَضَر الوجهُ : حَسُنَ ، وكان ذا رونق ، وبهجة ، وطراوة .
(٢) « الغضة » : الطرية .
(٣) « قوس قزح » : قوس ينشأ في السماء ، ويكون في ناحية الأفق المقابلة للشمس ، وتُرى فيه ألوانُ الطيف .

الثَّابتين في نفس الطِّفل : الحبِّ الخالص ، واللَّهْوِ الخالص .

ويبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة ، فيكون هـذا بعينه هو قربَهم من حقيقتها السَّعيدة .

* * *

هؤلاء الأطفال الذين هم السُّهولة قبل أن تتعقَّد .

والَّذين يَرَوْن العالَم في أوَّل ما ينمو الخيالُ ، ويتجاوز ، ويمتدُّ .

يفتِّشون الأقدارَ من ظاهرها ، ولا يسْتبْطنون ؛ كيلا يتألَّموا بلا طائلٍ .

ويأخذون من الأشياء لأنفسهم ؛ فيفرحون بها ، ولا يأخذون من أنفسِهم للأشياء ؛ كيلا يُوجدوا لها الهمَّ .

* * *

قانعون ، يكتفون بالتَّمرة ، ولا يحاولون اقتلاعَ الشَّجرة الَّتي تحمِلها .

ويعرفون كُنْهَ الحقيقة ، وهي : أنَّ العِبرَة بروح النِّعمة ، لا بمقدارها .

فيجدون من الفرح في تغيير ثوبٍ للجسم ، أكثرَ ممَّا يجده القائد الفاتح في تغيير ثوبٍ للملكة .

* * *

هؤلاء الحكماء ؛ الَّذين يُشْبه كلٌّ منهم آدم أَوَّل مجيئه إلى الدُّنيا .

حين لم تكن بين الأرض والسَّماءِ خليقةٌ ثالثةٌ معقَّدةٌ من صُنع الإنسان المتحضِّر .

حِكمتهم العُليا : أنَّ الفكرَ السَّاميَ هو جعل السُّرور فكراً ، وإظهارُه في العمل .

وشِعْرهم البديع : أنَّ الجمالَ ، والحبَّ ليسا في شيءٍ إلا في تجميل النَّفس ، وإظهارِها عاشقةً للفرح .

* * *

هؤلاء الفلاسفةُ الَّذين تقوم فلسفتهم على قاعدةٍ عمليَّةٍ ، وهي : أنَّ الأشياء الكثيرة لا تكثر في النَّفس المطمئنة .

وبذلك تعيش النَّفس هادئةً مستريحةً كأنْ ليس في الدُّنيا إلا أشياؤها المُيسَّرة .

أمَّا النفوسُ المضطربة بأطماعها ، وشهواتها ؛ فهي الَّتي تُبْتلَى بهموم الكثرة الخياليَّة .

ومَثَلها في الهمِّ مَثل طفيْليٍّ مغفَّل يَحزنُ ؛ لأنَّه لا يأكل في بَطنين .

* * *

وإذا لم تكثُرِ الأشياءُ الكثيرة في النَّفس ؛ كثرت السَّعادة ولو من قِلَّة .

فالطِّفلُ يقلِّب عينيه في نساءٍ كثيراتٍ ، ولكنَّ أمَّه هي أجملُهُنَّ ؛ وإن كانت شوْهاء[1] ، فأمُّه وحدَها هي أمُّ قلبه ، ثمَّ لا معنى للكثرة في هذا القلب .

هذا هو السِّرُّ ، خذوه أيها الحكماء ! عن الطِّفل الصَّغير !

* * *

وتأمَّلتُ الأطفالَ ؛ وأثرُ العيدِ على نفوسهم الَّتي وَسِعَت من البشاشة فوق مَلئها ؛ فإذا لسانُ حالهم يقولُ للكبار : أيَّتها البهائم ، اخلعي أرسانَك[2] ولو يوماً !

أيُّها الناس ! انطلقوا في الدُّنيا انطلاق الأطفالِ يوجِدون حقيقتَهم البريئةَ الضَّاحكة .

لا كما تصنعون ؛ إذ تنطلقون انطلاقَ الوحش يوجِد حقيقته المفترسة .

أحرارٌ حرِّيَّةَ نشاط الكون ، ينبعث كالفوْضَى ، ولـكن في أدقِّ النَّواميس .

يُثيرون السَّخط بالضَّجيج ، والحركة ، فيكونون مع النَّاس على خلافٍ ؛ لأنَّهم على وفاقٍ مع الطبيعة .

وتَحتدم بينهمُ المعارك ، ولـكن لا تتحطَّم فيها إلا اللُّعَبُ . . .

أمَّا الكبارُ ؛ فيصنعون المِدفَع الضَّخمَ من الحديد ، للجسم الليِّنِ من العَظم !

أيَّتها البهائمُ ، اخلعي أرسانَكِ ولو يوماً . . .

* * *

---

(١) « شوهاء » : قبيحة .

(٢) « أرسانك » : جمع رَسَن ، وهو الحبلُ تُقاد به الدابة .

لا يفرح أطفالُ الدَّار كفرحهم بطفلٍ يولد ، فهم يستقبلونه ، كأنَّه محتاجٌ إلى عقولهم الصَّغيرة .

ويملؤهم الشُّعورُ بالفرح الحقيقيِّ الكامِن في سرِّ الخلقِ ؛ لقرْبهم من هذا السِّرِّ ، وكذلك تحمل السَّنة ،ثمَّ تلد للأطفال يومَ العيد ؛ فيستقبلونه كأنَّه محتاجٌ إلى لهوِهم الطَّبيعيِّ .

ويملؤهم الشُّعور بالفرح الحقيقيِّ الكامِن في سرِّ العالم ، لقربهم من هـذا السِّرِّ .

* * *

فيا أسَفا علينا نحن الكبار ! ما أبعَدَنا عن سرِّ الخَلقِ بآثام العمر !

وما أبعدنا عن سرِّ العالم ، بهـذه الشَّهوات الكافرة ؛ الَّتي لا تؤمن إلا بالمادَّة !

يا أسَفا علينا نحن الكبار ! ما أبعدنا عن حقيقة الفرح !

تكاد آثامُنا واللهِ ! تجعلُ لنا في كل فرحة خَجْلَةً . .

* * *

أيَّتها الرِّياض المنوَّرةُ بأزهارها !

أيَّتها الطُّيورُ المغرِّدةُ بألحانها !

أيَّتها الأشجارُ المصفِّقة بأغصانها !

أيَّتها النُّجوم المتلألئة بالنُّور الدَّائم !

أنتِ شَتَّى ، ولكنَّكِ جميعاً في هؤلاء الأطفالِ يومَ العيد !

* * *